المحاضرة(04)

المحور الثاني: المذاهب العلمية في تفسير السلوك الإجرامي

تعددت الاتجاهات من اجل اعطاء تفسير علمي للظاهرة الاجرامية نتطرق لابرز هاته الاتجاهات كالتالي:

أولا: الاتجاه الفردي في تفسير الظاهرة الاجرامية:

الاتجاه الفردي للظاهرة الاجرامية يرجعها الى اسباب بيولوجية عضوية عصبية نفسية وتعد من اقدم النظريات في هذا الاتجاه النظرية البيولوجية في تفسير الظاهرة الاحرامية التي ظهرت في القرن السادس عشر 16 على يد العالم الايطالي لومبروزو الذي الحق الجريمة بالتكوين العضوي ، ثم تلاه العلامة النمساوي سيجموند فرويد المؤسس الحقيقي لعلم النفس الحديث صاحب نظرية التحليل النفسي وتفسر الجريمة تفسيرا نفسيا خالصا مع اسقاط الدور البيولوجي والتكويني في الدفع نحو الجريمة، وهي النظريات التي نتطرق اليها.

01- تفسير العالم لومبروزو للظاهرة الاجرامية:

وضع العالم الإيطالي"سيزار لومبروزو"Lombrose "1830 – 1909" دعائم هذه النظرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد كان "لومبروزو"Lombrose أستاذاً للطب الشرعي بجامعة"تورينو" بإيطاليا وطبيباً في الجيش الإيطالي. فأتاحت خدمته هذه ملاحظة الجنود بصورة عامة، وقد لفت نظره أن الجنود والقادة العسكريين ينفردون بخصائص لم تكن متوافرة في الجنود الاخرين الذين يعملون معهم. فمنهم من اعتادوا وشم أجزاء من أجسامهم بصور فاحشة وكتابات ماجنة. كما قام بتشريح جثث بعض المجرمين فوجد عيوباً ملحوظة في تكوينهم الجسمي، لاسيما في جماجمهم التي كان بها شذوذ في حجم الجبهة وشكلها الخارجي وكذلك وجد شذوذاً في أسنانهم عند فحصه لهم.

وقد كُلف بتشريح جثة قاطع طريق مشهور في إيطاليا يدعى" فيلالا " Viellala فلاحظ وجود فراغ مجوف في مؤخرة جمجمته يشبه الفراغ الموجود في جماجم القرود، كذلك قام بتشريح جثة مجرم يدعى"فرني" Verni، وآخر يدعى"ميسديا" Misdea .. وغيرهم؛ فآمن بنظرية"دارون التطورية " Darwin Evolution Theory وانتهى إلى القول: أن المجرم شخص فيه صفات موروثة ترجع إلى الإنسان البدائي."[1] بمعنى أنه يتميز منذ الولادة بتشويه أو شذوذ، تتمثل في سمات عضوية وصفات نفسية انحطاطية، سماها لومبروزو" وصمات الانحلال"Degenerative Stigmatic."[2] ومنها ما يأتي:

* اختلاف حجم وشكل الرأس عن النمط الشائع في السلالة أو المنطقة التي ينتمي لها.
* عدم تماثل نصفي الوجه.
* ضخامة الفك الأسفل.
* تشوه شكل الأذنين، فهما إما كبيرتان أو صغيرتان أو بارزتان من الرأس بشكل يماثل أذني الشمبانزي.
* التواء الأنف أو اعوجاجه أو انفطاحه.
* كبر حجم الشفتين وبروزهما.

* ضيق الجبين.
* كثافة شعر الرأس والجسم والحاجبين.
* انفراج في الأذرع والأقدام.
* وجود أصابع زائدة في اليدين والقدمين.
* عيوب في التجويف الصدري.
* امتلاء الوجنتين وبروزهما، كما في بعض الحيوانات.

كما وجد أن المجرم يتميز بصفات وسمات نفسية وعقلية ومزاجية يرتد بعضها إلى صفات وسمات الإنسان البدائي منها:-

* القدرة على تحمل الألم.
* عنف المزاج.
* الاستخفاف بالقوانين والقواعد الاجتماعية ورفض العمل بها.
* ضعف الوازع الديني.
* النضج المبكر للغريزة الجنسية.
* الميل إلى التشاؤم.
* حب العودة إلى القوانين البدائية.
* الاندفاع في التصرف.
* عدم المبالاة والميل إلى الكسل.
* عدم احترام النساء.
* عدم السيطرة على النفس، والشعور الدائم بعدم الاستقرار النفسي والعاطفي.

وبعد هذه الاكتشافات، قام "لومبروزو "Lombrose بنشر النتائج التي توصل إليها في كتاب له بعنوان"الإنسان المجرم" عام "1876"، وخلص فيه إلى أن المجرم إنسان بدائي وأنه يولد مجرماً بحكم عوامل وراثية تنتقل إليه عن آبائه فتجعله شاذاً، واستنتج أن شذوذ أعضاء الجسم ينبئ عن طبيعة إجرامية خطيرة، يولد المجرمون بها نتيجة خطأ في سلسلة تطورهم من الإنسان الهمجي أو البدائي، أي أنه كان من الواجب أن يولدوا بحالهم هذه في عصر الإنسان الأول، فشذوذهم العضوي وما يصاحبه من خروج على القانون ما هو إلاَّ ارتداد إلى الإنسان الأول. وأن بعض الظروف الاجتماعية تعطيهم الفرصة لممارسة أعمالهم الإجرامية، وهنا أدخل" لومبروزو" بيئة المجرم وظروفه بوصفها عوامل محركة لنزعاته الإجرامية المترّسبة في داخله والبادية على مظهره، أو مهيجة لجهازه العضوي الداخلي المختل الوظائف، أو مثيرة لحالته النفسية السيئة.

إلاّ أن" لومبروزو "Lombrose لم يقف عند نظريته الأولى بالإجرام الوراثي، فقد حاول إدخال بعض العوامل النفسية والاجتماعية مع احتفاظه بفكرته الأصلية مع المجرمين بالفطرة الذين يمثلون النموذج الحقيقي للمجرم.

وكان لومبروزو في بدء دراسته يعتقد أن المجرمين بالولادة يشكلون جميع المجرمين بنسبة100% تقريباً، ولكنه فيما بعد خفض نسبتهم إلى 40% تقريباً، واعتبره الصنف الغالب بين خمسة أصناف من المجرمين. والأصناف الأربعة الأخرى هم كما سماهم ووصفهم لومبروزو:-"3"

تصنيف المجرمين عند لومبروزو:

* **المجرم بالفطرة أو الوراثة":**

وهؤلاء هم ضحايا الجريمة الذين لاسبيل إلى علاجهم أو إصلاحهم، من خلال دراسته لمكونات العضوية للمجرمين والتي تتمثل في حجم الجمجمة، ضخامة العينين، فلطحة في الانف، وغيرها من الخصائص التي ورثوها عن اباءهم، فعرف ان مثل هؤولاء هم مجرمون بالفطرة.

* **المجرم بالعاطفة ":**

ويصدر إجرامهم عن تهور واندفاع عاطفي، ويدخل ضمن هذه الفئة المجرمون السياسيون الذين يصدر إجرامهم أحياناً عن وطنية جامدة.

* **المجرم الجنون:**

وهم المجرمون الذين يصدر إجرامهم عن نقص عقلي يفقدهم القدرة على التميز بين الخير والشر.

* **المجرم بالصدفة :**

وهم المجرمون الذين يرتكبون إجرامهم تحت تأثير بعض الظروف الاجتماعية القاسية أو لسوء التنشئة الاجتماعية أو التربية السيئة أو تحت تأثير أي عامل نفسي اجتماعي آخر.

ج-تقدير نظرية لومبروزو :

لاشك أن النظرية الإيطالية بشقيها القديم والحديث كان لها الدور الأساس في تفسير الظاهرة الإجرامية تفسيراً علمياً قائماً على الحقائق الواقعية بعيداً عن الأفكار الميتافيزيقية والأخلاقية والدينية، بسبب اعتمادها المنهج التجريبي والملاحظة في البحث والدراسة.

ومع ذلك فقد تعرضت هذه النظرية لجملة من الانتقادات أهمها:-

1 . بطلان الأساس الذي بني عليه" لومبروزو " نظريته الأولى، حيث اقتصرت دراسته على فحص جثث وأجسام المجرمين الأحياء منهم والأموات، ولم يستخدم مجموعة ضابطة من غير المجرمين، كما أن عينة البحث التي استخدمها لم تكن ممثلة تمثيلاً صحيحاً للظاهرة محل الدراسة لا من حيث عدد المجرمين ولا من حيث نوع الجرائم، الأمر الذي أفقدها المنهجية العلمية."11"

2. القول بأن الصفات الوحشية والبدائية التي أكد عليها" لومبروزو" تعوزه الدقة، وفيه نوع من المغالطة، لأن المجتمع البدائي لم يكن جميع أفراده من المجرمين، كما أنه لا يمكن التحقق من أن الإنسان الأول كان يعيش على سفك دماء أخيه، فهذه أفكار غيبية بعيدة عن النهج العلمي الاختباري، من هنا خرجت أساسات هذه النظرية عن المنطق السليم."12"

3. أغفل" لومبروزو " دور العوامل الأخرى لاسيما الاجتماعية أو البيئية في شخصية المجرم وفي الدفع به إلى هاوية الجريمة، وهذا دعا تلميذه" فيري " إلى الاهتمام بدراسة هذا الجانب من العوامل.
4. استخفاف النظرية بالحريات والضمانات الفردية، مع الإخلال بمبدأ الشرعية عندما نادت باتخاذ تدابير استئصاليه قاسية ضد فئات المجرمين لاسيما المجانين والمجرمين بالعادة وغيرهم من المجرمين.
5. قول النظرية بحتمية الجريمة وإنكارها المطلق لحرية الاختيار."[14]
6. إهمالها لاعتبارات العدالة وما استتبعه ذلك من إنكار للمسؤولية الجنائية.
7. قولها بوجود نوع ثابت من الجريمة غير مختلف عليه لا في الزمان ولا في المكان، وهي الجريمة الطبيعية القائمة على الجوانب الأخلاقية والقيم الاجتماعية مشككة بالمفهوم القانوني للجريمة على نحو ما ذكره"جاروفا لو " هو قول لا يخلو من التناقض أيضاً.